

هاربٌ إلى الغاب

عندما ماتت ابنة الفنان الرومانسى الفرنسى العظيم فيكتور هيجو ، أحس الفنان بالحزن ، وأحس بأن الغربة القاسية عن هذا العالم تعتصر قلبه ، ولم تستطع كلمات العزاء أن تخفف عنه شعوره الحزين المرير ...

وأخيراً وجد العزاء يقبض على قلبه لا من السنة الناس ولكن من لسان آخر هو لسان الطبيعة. لقد خرج (هيجو) إلى الغابات والحقول ، وتأمل الليل والقمر والنجوم ، ثم كتب قصيدة رائعة أملتتها عليها رؤاه وهو يتجول فى عالم الطبيعة ، يمزج روحه بمظاهرها المختلفة ... ويقول فى هذه القصيدة :

(الآن وقد نأت عن عيني باريس : شوارعها وقصورها وضبابها وسطوحها . الآن بين أفنان الأشجار أستطيع أن أفكر فى جمال السماوات ، الآن فى ظلمة الحداد التى ملأت نفسى أخرج ظافراً شاحب اللون ، وأحس بسلام الطبيعة الجليلة يتسلل إلى قلبى . الآن وأنا جالس على الشط ذى الأمواج ، مروعاً بهدوء الأفق وجلاله ، أستطيع أن أثير فى نفسى الحقائق العميقة ، وتأمل الزهور بين الأعشاب ... الآن وأنا ضعيف ضعف المرأة ، أسجد بين يديك يا إلهى وتحت سماواتك الصافية وقد أضاءت روحى فى بلواها نظراتى إلى عالمك من حولى (1) .

هذه النظرة المتصوفة نحو الطبيعة ، هى نظرة الرومانسيين ... إنهم يهربون

(1) ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال فى كتابه " الرومانتيكية " .

من زحام الحياة ، وزحام العلاقات الإنسانية ليعيشوا في وحدة عميقة مع نفوسهم ، يتأملون ويفكرون ، ويجدون العزاء عن عذابهم وضيقهم بالحياة ، بل يجدون المعنى الصحيح للحياة ، إن الطبيعة هي معبد الرومانسى ، وهى سعادة روحه ، وخلاصه من عذابه وألمه ... ولقد دعا أبو الرومانسية الأوروبية جان جاك روسو للعودة إلى الطبيعة وعبادتها ، ففى الطبيعة توجد الفطرة الإنسانية بدون تشويه ولا تكلف ، لأن الطبيعة ترفض الاصطناع والحدلقة ، وفى أحضان الطبيعة تصفو النفس البشرية وتعود إلى شعورها الصحيح السليم بالحياة .

وقد ربط بعض النقاد بين الدعوة إلى عبادة الطبيعة والدعوات السياسية الثورية التى انطلقت فى الغرب على أثر ظهور الحركة الرومانسية ، فحب الطبيعة خلق نوعاً من الوعى والانتباه إلى أكبر عابد مترهب فى محراب الطبيعة وهو : الفلاح ، فالفلاح هو الذى يعيش فى الحقول ، ويزرع القمح والورد ، وكان الفلاح قبل الثورة الفرنسية فى المجتمع ، وقبل الثورة الرومانسية فى الأدب ، ضائعاً بلا حقوق ، وكان النظام الذى تخضع له الأرض هو الإقطاع ، أى ملكيات كبيرة من الأرض يسيطر عليها بمن فوقها من المزارعين والفلاحين مجموعة قليلة من الأفراد ، ولكن الاهتمام بالطبيعة فى الأدب الرومانسى أبرز شخصية الفلاح وساعد على الخطوات التى خطتها الثورة الفرنسية وحطمت بها الإقطاع لا فى فرنسا وحدها بل فى أوروبا كلها تقريباً .

فالتبيعة بالنسبة للرومانسين كانت اكتشافاً اهتموا به اهتماماً كبيراً وكان هذا الاهتمام بالطبيعة سبباً من أسباب الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى الشامل فى حياة الفلاح ، كذلك كان هذا الاهتمام بالنسبة للرومانسين طريقاً للخلاص من الألم ، وكان عزاء للنفس الرومانسية الرقيقة الخيالية التى تفزعها مأساة الحياة وأحزائها .

وأبو القاسم الشابي شاعر رومانسي أصيل ، ولذلك فنحن نجد أن الطبيعة تحتل في شعره مكانة هامة بارزة ، إنها الأم الحانية ، والملجأ الأول والأخير ... وقد كان الشابي بحاجة إلى أم تحنو عليه وبحاجة إلى ملجأ يؤويه ، ذلك لأنه كان على خلاف حاد مع الحياة الواقعية ، وكان يعيش في خصومة عميقة مع المجتمع ، وكان طموحاً إلى حياة أكثر حرارة ويقظة بين جميع أبناء شعبه ، وكان فوق هذا كله مريضاً بقلبه ، يزحف الموت إلى حياته لحظة بعد لحظة ، وكان يحس بأن رغبته في الحياة مهددة دائماً بقوة الموت الزاحف إليه ... كل هذه الأسباب جعلته حزينا ، ودفعته إلى البحث عن عالم يذوب فيه بشخصه وأحاسيسه وأفكاره ، فيخفف عنه ، ويرفعه إلى شعور جديد بحيث يجد في الألم لذة ، وفي متاعب الحياة اليومية شيئاً صغيراً يتضاءل أمام الشعور السامي الذي يعيش فيه .

وفي الطبيعة وجد الشابي عالمه الجميل النقي ، كما وجد (هوجو) من قبل عزاءه وخلاصه بعد موت ابنته — في الطبيعة . وفي قصيدة الشابي المشهورة (النبى المجهول) يعبر الشابي عن أزمته مع شعبه ، حيث لا يفهمه الشعب ، ولا يستجيب لأفكاره وآرائه التي تهدف إلى تحريره المعنوى والمادى ... عندما تصل به الأزمة إلى أعلى درجاتها لا يجد ملجأ سوى الطبيعة ومظاهرها المختلفة كما يقول في قصيدة (النبى المجهول) :

إننى ذاهب إلى الغاب يا شعبى أقضى الحياة وحدى بيأسى

وعندما تنتهى حياته ويموت ، فهو يفضل الموت فى الغاب ، فالغاب بما فيه من طيور وأشجار أحنى عليه من الناس :

تخط السيول حفرة رمسى
ويشدو النسيم فوقى بهمس
كما كن فى غضارة أمسى

ثم تحت الصنوبر الناضر الحلو
وتظل الطيور تلغو على قبرى
وتظل الفصول تمشى حوالى

فالشابى يجد خلاصة الروحى فى الطبيعة ، ولذلك فهو يعيش بخياله
وحواسه ومشاعره كلها فى الطبيعة ، ويستمد صوره الفنية من الطبيعة قبل
أن يستمدها من أى شىء آخر .

والطبيعة عند الشابى خير مطلق وجمال مطلق ، وكأنه بهذا الإحساس نحو
الطبيعة يجعل منها عالمه (المثلالى) الكامل الذى (يعوضه) عن العالم الواقعى
الناقص المليء بالشر والقبح والحزن ، فإذا كان قد فقد الأصدقاء فسوف يجد
الصدقة والفهم عند الطيور .

سوف أتلو على الطيور أناشيدى وأفضى لها بأشواق نفسى
فهى تدرى معنى الحياة وتدرى أن مجد النفوس يقظة حس

فالطيور عنده تدرى معنى الحياة الذى لا يدرىه أبناء مجتمعه ويقظة
الإحساس التى تفهمها الطيور لا يفهمها البشر الذين يعيشون حوله ... إن
(يقظة الإحساس) عند الشابى هى جوهر الحياة .

وهكذا ، فكل المعانى التى فقدتها فى الحياة مع الناس وجدها فى الطبيعة :
الصدقة والفهم والحب والحنان والجمال . إن الطبيعة هى عالمه المثلالى الذى
يرد به على نقص الحياة الاجتماعية وقصورها عن الوصول إلى الكمال .

على أن أهم ظاهرة في شعر الطبيعة عند الشابي هي أنه أعطى للطبيعة (معنى إنسانياً) ، وهذه الظاهرة لا ينفرد بها الشابي فهي تتكرر كثيراً عند كبار الشعراء الذين عبروا عن الطبيعة أو صوروها في شعرهم ، ولقد كان الشابي واحداً من هؤلاء ... لم يكن يحب الطبيعة المجردة ، ولم يكن يجد فيها جمالاً خاصاً مستقلاً عن الإنسان ، بل إن كل جمال في الطبيعة إنما يستمد وجوده من (معنى إنساني) ، وهذه الظاهرة تثبت ما أشرنا إليه من أنه كان يبحث في الطبيعة عن الجمال والكمال المفقودين في المجتمع والحياة الإنسانية التي يعيشها . فقد اقتنع بخياله وإحساسه الحاد أن الطبيعة (مجتمع) آخر متناسق يقوم على أساس من نفس المشاعر التي تقوم عليها الحياة الإنسانية . والطبيعة هنا تنطق بلسان الشابي وتقول كل ما آمن به من أفكار ، وكل ما امتلأ به قلبه من عواطف وأحاسيس . فالحبشية في قصيدة (صلوات في هيكल الحب) عذبة (كالورد ، كالصباح الجديد ، كالسماء الضحوك ، كالليلة القمر) ... وفي نفس القصيدة يخاطب الشابي حبيبته بمثل هذه الصور المستمدة من الطبيعة أيضاً : (أنت فجر من السحر) (أنت روح الربيع) ... كلها صور مستمدة من الطبيعة ، ولكن لتوضيح عاطفة إنسانية وجمال إنساني ، لتوضيح عاطفة الحب وجمال المرأة المحبوبة .

وفي قصيدة (قلب الأم) عندما يموت الطفل تذوب روحه في كل مظاهر الطبيعة ، وتنظر الأم الحزونة هنا وهناك ، فترى صورة ابنها وصوت ابنها وروح ابنها ، ترى هذا كله لأن ابنها لم يدفن في قبر بل انساب في الأزهار والأشجار وأصوات الطيور :

ويراك في صور الطبيعة : حلوها ودميمها
وحزيناها وبهجها ، وحقيرها وعظيمها

في رقعة الفجر الوديعة ، وفي الليالي الحاملة
في فتنة الشفق البديع وفي النجوم الباسمة
في رقص أمواج البحيرة تحت أضواء النجوم
في سحر أزهار الربيع ، وفي تماويل الغيوم

وهكذا ترتبط الطبيعة بعاطفة الأم نحو ابنها ، وبذلك تأخذ الطبيعة معنى
إنسانياً واضحاً ، وفي الوقت نفسه تصبح عاطفة الأم ثابتة خالدة مثل مظاهر
الطبيعة نفسها .

وفي قصيدة (إرادة الحياة) ينادى الشابي الشعب ويدعوه إلى اليقظة
والثورة ، ثم يجعل الطبيعة تنطق بأفكاره فيقول على لسان الريح :

ودمدمت الريح بين الفجاج	وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمحت إلى غاية	ركبت المنى ونسيت الحذر
ولم أتجنب عبور الشعاب	ولا كبة اللهب المستعر
(ومن لا يحب صعود الجبال	يعش أبد الدهر بين الحفر

فالريح تدعو إلى الثورة وتحدد للناس طريق الثورة الذي هو طريق الخطر
ونسيان الحذر وخوض اللهب ، وفي نفس القصيدة يصور الشابي الأرض في
حالة شوق وطمأ إلى الحياة ثم يأتي (الربيع) فتفجر الكائنات ، وينشق
التراب عن كثير من مظاهر الحياة ، وكأن الربيع الذي ملأ الأرض هو الثورة
التي يدعو إليها الشابي مجتمعها ، ليتحرر هذا المجتمع من جده ويصبح مجتمعاً
خصباً مليئاً بمظاهر الحياة ، مثل الأرض في الربيع .

يقول الربيع للحياة في نداء حار جميل يوجهه إلى الأرض :

إليك الفضاء ، إليك الثرى الحالم المزهـر
إليك الجمال الذى لا يبيد ؛ إليك الوجود الرحيب النضر
فميدى كما شئت فوق الحقول ، بخلو الثمار وغض الزهر
وناجى النسيم ، وناجى الغيوم ، وناجى النجوم ، وناجى القمر
وناجى الحياة وأشواقها ، وفتنة هذا الوجود الأغـر

وتستجيب الأرض لثورة الربيع ، وهى الثورة التى يتمنى الشاب أن يتعلم
منها المجتمع ، إنه درس تلقيه الطبيعة على الحياة الإنسانية ، وعلى الناس : أن
يتعلموا معنى الثورة من الأرض والربيع ... من الطبيعة !

هناك قصيدة أخرى للشاب تعتبر من أهم قصائده هى قصيدة (جنة
الضائعة) وتلك هى جنة طفولته التى كانت مليئة بالبراءة والعذوبة والتى
أضاعتها الحياة وسلبتها منه ، وهو يرسم سعادة الطفولة فى تلك العلاقة القوية
بين الطفولة والطبيعة ، فالطفولة فطرة نقية ، وهما مثال خالص للجمال .

إنه يذكر هذه الطفولة :

أيام كانت للحياة حلاوة العروض المطير
وطهارة الموج الجميل ، وبحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور ، بين جداول الماء النمير
أيام لم نعرف من الدنيا سوى مروح السرور
وتتبع النخل الأنيق وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكمل بالصنوبر والصخور

وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيور
مسقوفة بالورد ، والأعشاب ، والورق النضير
نبنى فتهدمها الرياح ، فلا نضج ولا نشور
ونعود نضحك للمروج وللزنابق والغدير

وتضيع منه جنته ويقابل الحياة العملية الشاقة ، فتسحق أحلامه ، ويكتشف
أن طبيعة الإنسان ليست هى الخير المطلق بل هى مزيج من الخير والشر ،
وتصدمه هذه الحقيقة ، فقد كان يظن أن صورة الحياة والإنسان التى أحسها
فى طفولته هى الصورة الواقعية التى سيقابلها بعد ذلك فى مراحل الحياة
المختلفة ، ولكن صورة الطفولة كانت على العكس حلمًا وخيالاً بلا رصيد
فى دنيا الواقع ، وكانت النتيجة هى الصدمة النفسية التى أخذ يعانى منها حتى
مات ... لقد ضاعت جنته وهو اليوم يعيش فى الجحيم :

واليوم أحيا مرهق الأعصاب مشبوب الشعور
متأجج الإحساس أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشى على قلبى الحياة ، ويزحف الكون الكبير
هذا مصيرى ، يا بنى الدنيا ، فما أشقى المصير

وللشباب قصيدة أخرى تعتبر من قصائده الهامة أيضًا هى
(من أغاني الرعاة) وفى هذه القصيدة يغنى للطبيعة بنفس طريقتة ، فهو يضيف
عليها طابعًا إنسانيًا ، فالراعى يعيش مع خرافه فى عالم مثالى ، أو مدينة
فاضلة ، إنه يعيش فى الدنيا الجميلة التى لم يجدها الشابى فى الواقع ... إن
الراعى يقول لخرافه :

لن تملئ يا خرافى ، فى حمى الغاب الظليل
فزمان الغاب طفل ، لاعب ، عذب ، جميل
وزمان الناس شيخ ، عابس الوجه ، ثقیل
يتمشى فى ملال ، فوق هاتيك السهول

هذه هى المقارنة الأساسية الدائمة التى يعقدها الشابى بين الحياة الواقعية ،
وبين حياة الطبيعة ، فعالم الناس أو زمانهم : (شيخ عابس الوجه ثقيل) أما عالم
الطبيعة أو زمانها فهو (طفل ، لاعب عذب ، جميل) ... ولذلك فهو يختار
الطبيعة ويعطيها كل حبه وإيمانه وينصرف عن عالم الناس ساخطاً عليه غير
مقتنع ولا راض به .

تلك هى (النظرة الإنسانية) للطبيعة والتى يعبر عنها أبو القاسم الشابى فى
شعره ، فالطبيعة تكتسب روعتها وقيمتها من الصلة بينها وبين الحياة الإنسانية
فهو يهرب إليها لأنها تحتوى على الجمال والتناسق الذى لم يجده فى الحياة
الإنسانية ، وهى التى تحمل إلى قلب الأم الحنان والعزاء ، بعد أن مات الطفل
، واتحدت روحه البريئة مع مظاهر الطبيعة المختلفة ، والحب الأول للشاعر
وهو حب الطفولة ، كان جنة شبيهة بروعة الطبيعة وسحرها ولكنه فقدته
الآن ، فهو بدون جنة وبدون حب ، وحتى معنى الثورة يجده شاعرنا فى
الطبيعة ، فالطبيعة تثور على القفر والجذب والعقم ، وليس الربيع الذى يحمل
الازدهار والاحضرار إلى الأرض ، والصفاء الجميل إلى الجو والسماء ،
والحيوية والنشاط للفرشات والطيور ... ليس هذا الربيع إلا (ثورة الطبيعة)
التي يجب أن يتعلمها الناس ، ويقلدوها تقليدًا أصيلاً حتى يتخلصوا من كل
مظاهر الموت الذى تخلصت منه الطبيعة عندما تخلصت من العقم والجذب
والقفر .

والراعى إنما هو إنسان مثالى ، يعيش فى وسط الطبيعة حياة سعيدة ، وليس هذا الراعى إلا المثل الأعلى للإنسان عند الشابى ، وليست الطبيعة سوى المثل الأعلى للمجتمع فكأن الطبيعة (و) الراعى (هما مدينة أفلاطون الفاضلة ، أو جمهوريته المثالية ، حيث يقترح أفلاطون تعديل الحياة الاجتماعية والثورة على الواقع الإنسانى لتكميله من النقص الذى يعانىهِ ، ولإزالة معانى القبح والشر والضعف ، وتحقيق الجمال والخير والقوة .

تلك هى خلاصة نظرة شاعرنا للطبيعة ، وذلك هو سر حبه لها وهروبه إليها، ففيها الكمال الذى يحلم به ، والحنان الذى لم يجده فى المجتمع ، والثورة التى لم يقيم بها الشعب ، والبراءة التى مزقتها الواقع وأفسد معناها الجميل ، وفيها أخيراً التناسق والحيوية ، وهما من أرقى الصور التى يحلم بها الشاعر للحياة ، ويحملها على الدوام فى قلبه الرقيق النبيل .